المحاضرة رقم 02: نشأة اتجاه الثقافة والشخصية

تمهيد

تهدف هذه المحاضرة إلى تتبع **السياق التاريخي والعلمي** الذي أدى إلى نشأة اتجاه **الثقافة والشخصية** داخل الأنثروبولوجيا، مع إبراز العوامل الفكرية والمنهجية التي أسهمت في ظهوره، وخاصة تأثير الأنثروبولوجيا الأمريكية وعلم النفس، ولا سيما التحليل النفسي، كما نسعى إلى توضيح الفرضيات الأساسية التي قام عليها هذا الاتجاه، وخصائصه العامة، وأدواته المنهجية، بما يسمح بفهم موقعه داخل الحقل الأنثروبولوجي العام.

أولا: السياق التاريخي والعلمي لنشأة اتجاه الثقافة والشخصية

1. تطور الأنثروبولوجيا الثقافية في نهاية القرن التاسع عشر

شهدت الأنثروبولوجيا في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين تحولات عميقة، تمثلت في الانتقال من:

- **النظريات التطورية الأحادية**
- إلى **الدراسات الميدانية الوصفية والتحليلية**

فقد كانت المدرسة التطورية ترى أن المجتمعات الإنسانية تمر بمراحل تطور واحدة، وأن الاختلافات الثقافية تعكس درجات متفاوتة من "التقدم" أو "التأخر". غير أن هذه النظرة تعرضت لانتقادات شديدة، خاصة بسبب:

- نزعتها الإثنومركزية
- تجاهلها للخصوصيات الثقافية
- اعتمادها على مصادر غير ميدانية

2. المدرسة الأمريكية والنسبية الثقافية

برزت المدرسة الأمريكية في الأنثروبولوجيا بقيادة **فرانز بواس**، الذي أحدث قطيعة معرفية مع التصورات التطورية. وقد دعا بواس إلى:

- دراسة كل ثقافة في سياقها التاريخي الخاص
- رفض الأحكام القيمية المسبقة
- التركيز على العمل الميداني

أسهم هذا التحول في إعادة توجيه الأنثروبولوجيا نحو:

- فهم المعاني الثقافية
- دراسة التجربة الإنسانية اليومية
- الاهتمام بالفرد داخل الثقافة

ومن هذا المناخ الفكري، بدأت الأسئلة حول: كيف تؤثر الثقافة في تفكير الفرد، ومشاعره، وسلوكه؟

وهي الأسئلة التي مهدت مباشرة لظهور اتجاه الثقافة والشخصية.

3. الحاجة إلى تفسير الاختلافات النفسية ثقافيًا

مع توسع الدراسات الإثنوغرافية، لاحظ الأنثروبولوجيون وجود:

- اختلافات واضحة في أنماط السلوك
- تباين في طرق التعبير عن الانفعالات
- تنوع في أساليب التنشئة الاجتماعية

هذه الملاحظات دفعت الباحثين إلى التساؤل:

- هل الاختلافات النفسية عالمية؟
- أم أنها مشروطة ثقافيًا؟

ومن هنا، برزت الحاجة إلى دمج المقاربة النفسية بالتحليل الثقافي، ما شكّل الأرضية العلمية لنشأة اتجاه الثقافة والشخصية.

ثانيا: تأثير علم النفس والتحليل النفسي

1. التحليل النفسي الفرويدي وأثره في الأنثروبولوجيا

كان لعلم النفس، وخاصة **التحليل النفسي**، دور محوري في بلورة اتجاه الثقافة والشخصية، فقد قدم **سيغموند فرويد** تصورات جديدة حول: اللاشعور، والدوافع النفسية، وأثر الطفولة في تكوين الشخصية.

وقد جذبت هذه الأفكار اهتمام الأنثروبولوجيين لأنها:

- تركز على الخبرات المبكرة
- تفسر السلوك الإنساني بعمق
- تتيح تحليل الرموز والأساطير والطقوس

رغم أن فرويد لم يكن أنثروبولوجيًا، فإن أعماله، خاصة تلك المتعلقة بالدين والأسطورة، فتحت المجال أمام حوار خصب بين علم النفس والأنثروبولوجيا.

2. توظيف التحليل النفسي في الدراسات الأنثروبولوجية

سعى بعض الأنثروبولوجيين إلى توظيف مفاهيم التحليل النفسي في دراسة الثقافات المختلفة، مثل: عقد الطفولة، آليات الدفاع النفسي، الرمزية...، غير أن هذا التوظيف لم يكن نقلاً حرفيًا، بل جرى تكييفه مع الخصوصيات الثقافية.

وقد ركز الباحثون على:

- ❖ تأثير أساليب التنشئة الاجتماعية في تشكيل البنية النفسية
- ❖ العلاقة بين المؤسسات الاجتماعية والشخصية

ومن هنا، بدأ يتبلور تصور مفاده أن: الثقافة تؤدي دورًا أساسيًا في توجيه الطاقة النفسية للفرد.

3. حدود التأثير النفسي

رغم أهمية التحليل النفسي، وُجهت انتقادات لاستخدامه في الأنثروبولوجيا، من أبرزها:

- ❖ تعميم مفاهيم نفسية نشأت في سياق ثقافي غربي
- ❖ إغفال التنوع الثقافي في التجربة النفسية
- ❖ التركيز المفرط على الطفولة

وقد أسهم هذا النقد في تطوير اتجاه الثقافة والشخصية، ودفعه إلى تبني مقاربات أكثر توازناً.

ثالثا: تشكّل مدرسة الثقافة والشخصية

1. أسباب ظهور اتجاه الثقافة والشخصية

يمكن تلخيص أسباب ظهور هذا الاتجاه في مجموعة من العوامل المتداخلة:

- ❖ تطور الأنثروبولوجيا الميدانية
- ❖ تأثير علم النفس والتحليل النفسي
- ❖ الحاجة إلى تفسير التنوع السلوكي والنفسي ثقافيًا
- ❖ نقد الحتمية البيولوجية

وقد أدى هذا التفاعل إلى نشوء اتجاه علمي يسعى إلى:

- ❖ فهم الشخصية داخل سياقها الثقافي
- ❖ تجاوز الفصل بين الفرد والمجتمع

2. الفرضيات الأساسية للاتجاه

يقوم اتجاه الثقافة والشخصية على عدد من الفرضيات النظرية، من أهمها:

- ❖ الثقافة تؤثر بعمق في تكوين الشخصية
- ❖ أنماط التنشئة الاجتماعية تلعب دورًا حاسمًا
- ❖ توجد سمات نفسية مشتركة بين أفراد المجتمع الواحد
- ❖ الشخصية ليست معطى ثابتًا بل بناءً ديناميًا

وقد شكلت هذه الفرضيات الإطار النظري الذي وجه الدراسات الميدانية في هذا المجال.

3. المنهجية المعتمدة في دراسات الثقافة والشخصية

اعتمد رواد هذا الاتجاه على منهجيات متعددة، أبرزها:

- ❖ الملاحظة بالمشاركة
- ❖ دراسة الطفولة والتنشئة الاجتماعية
- ❖ تحليل الأساطير والطقوس
- ❖ المقابلات النفسية

وقد سمح هذا التنوع المنهجي بفهم أعمق للعلاقة بين الثقافة والشخصية.

4. تقييم عام للاتجاه

أسهم اتجاه الثقافة والشخصية في:

- ❖ إغناء الأنثروبولوجيا بنظرة نفسية
- ❖ نقد التصورات العالمية للشخصية
- ❖ إبراز الدور الثقافي في تشكيل النفس الإنسانية

غير أنه واجه تحديات نظرية ومنهجية، دفعت إلى مراجعة بعض مفاهيمه، دون أن تلغي قيمته العلمية.

خلاصة

يتبين أن اتجاه الثقافة والشخصية لم يظهر فجأة، بل كان نتيجة مسار طويل من التطور العلمي والفكري داخل الأنثروبولوجيا، وتفاعلها مع علم النفس، وقد شكّل هذا الاتجاه منعطفًا مهمًا في دراسة الإنسان، إذ أعاد الاعتبار للعلاقة الجدلية بين الفرد والثقافة، ومهّد الطريق لظهور الأنثروبولوجيا النفسية.